الحركة التعاونية الاستهلاكية

للأستاذ عبد اللطيف عامر

الحركة التعاونية الاستهلاكية ، أو التعاون بين المستهلكين كنظام اقتصادى اجتماعى ، يدين بالفضل فى وجوده للظروف التى مرت على العمال فى انجلترا ، ولما قاسوه من صنوف المحن وألوان الشقاء خلال الفترة الطويلة التى اصطلحوا على تسميتها بفترة الانقلاب الصناعى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

كان من مظاهر الانقلاب الصناعى أن فوجئ العمال الذين يشتغلون بالصناعات فى ذلك الحين بتغيير كبير فى عملهم فتحولت الأوضاع القديمة للعمل تحولا خطيرا فى مظهرها وفى نتائجها الاقتصادية والاجتماعية .

وترتب على ذلك أن أصبح العمل سلعة من السلع الرخيصة جدا فى سوق الصناعة ، وضاقت بالعمال سبل المعيشة ، وتحكم فيهم أصحاب الأعمال فأذاقوهم من الإعنات والقسوة ألوانا وساءت حالتهم لدرجة لفتت إليهم أنظار المصلحين الاجتماعيين .

ولكن حالة العمال هذه هى التى أخرجت لنا أولئك المصلحين الذين حاولوا بكتاباتهم وبتجاربهم أن يصلحوا من حالة العامل . وفى طليعتهم " روبرت أوين " الذى يسميه العالم أجمع " أبا التعاون " و " وليم كنج " و " وليم توبسون " وهم الذين تفتقت أذهانهم ودفعتهم عاطفتهم لخدمة العمال ، وقد حاولوا جهدهم أن يجعلوا من التعاون نظاما كفيلا بانقاذ أولئك العمال من وهدة الشقاء .

ولولا التعاليم التى وضعها هؤلاء المصلحون ، وكفاياتهم وتجاربهم العملية التى حفزت جمهورا كبيرا من الكتاب المعاصرين والأتباع إلى أن ينحوا نحوهم ويضربوا على نغمتهم لما تكونت هذه العقيدة التعاونية التى تشبعت بها نفوس العمال الذين كان منهم هذا النفر القليل من عمال بلدة صغيرة بالقرب من مانشستر تسمى "روتشديل". فقد كتب لهم التوفيق فى تجربتهم ، وعلى أيديهم حدثت المعجزة التى تكون بها هذا النظام التعاونى أو هذا النظام الاقتصادى الاجتماعى العالمى الكفيل بإسعاد العالم اذا أخلص فى تنفيذه .

والانقلاب الصناعى (وهو الداعى الأول الى التفكير فى النظام التعاونى ثم الى وجوده) هو هذا التحول الكبير الذى طرأ على الصناعة باحلال الآلات محل العمل اليدوى فى الصناعات ، وبانتقال العمال حيث توجد هذه الآلات ، وبتكديسهم فى المصانع . وقد بلغ هـذا التطور فى الصناعة أو هذا الانقلاب أشده فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٧٧٠ و ١٨٤٠ حتى ان الصبى الصغير الذى كان يعمل على الآلة أصبح ينتج مادة مصنوعة تفوق فى الكمية وفى الجودة ما كان ينتجه عدة رجال يعملون بأيديهم .

وقد ترتب على هذا أن عددا كبيرا من العمال أصبح زائدا على حاجة الصناعة ، وهـذا الذى دعا أصحاب العمل الى الاستفادة من هـذه الحالة فخفضوا أجور العمال حتى أصبحت أقل من القليل الذى يكفى للقوت الضرورى . . وكانت حياة العمال أثناء هـذا الانقلاب سلسلة من المحن . . إذ كان العامل يقاسى الأمرين بسبب سوء الحالة الصحية فى مسكنه وفى المصنع الذى يعمل فيه . . حتى الأطفال بين سن الخامسة والثامنة كانوا يستأجرون فى أعمال شاقة مضنية متلفة لصحتهم وهم فى هذه السن الغض المبكرة .

ولكى نزداد علما بحالة العمال فى ذاك الوقت لا بأس من أن نذكر أن الحروب النابليونية كانت مستعرة فى أوربا الى عام ١٨١٥ أى فى نفس الوقت الذى كان فيه الانقلاب الصناعى على أشده ، وبسبب ما ترتب على هـذه الحروب من خراب واضطراب اقتصادى ازدادت حالة العمال سوءا خصوصا فى الفترة بين سنتى ١٨١٥ و ١٨٤٠ أى فى مدى ربع قرن كامل ، لأن هـذا الاضطراب الاقتصادى الذى حدث لم يدع مجالا لكى تستخدم الصناعة الحديثة فى وقت قصير كل الأيدى العاملة التى شل عملها الانقلاب الصناعى .

ومن الغريب أن العامل فى انجلترا فى ذاك الوقت ، وحالته كما وصفنا ، كان يتحمل وحده معظم عبء الضرائب التى تفرضها الحكومة ، فنحو ثلثى مجموع إيرادات الحكومة كان مصدره الرسوم الجمركية وما شابهها من الضرائب . فكانت تفرض رسوم جمركية فادحة على القمح والشاى والبن والكاكاو والتيل والصوف والزجاج وغيرها من المواد الأساسية التى لا غنى للعامل عنها . كما كانت تفرض ضرائب على استهلاك الشمع والبفتة والجرائد إلى غير ذلك من السلع التى لابد لكل شخص من استعمالها .

ومن المعروف أن الضرائب على السلع الضرورية المعدة للاستهلاك سواء كانت ضرائب مباشرة على الاستهلاك أو غير مباشرة على شكل رسوم جمركية يكون عبؤها ثقيلا على الطبقة الفقيرة ذات الإيراد المحدود ، والتى تضطر إلى إنفاق كل دخلها على الضروريات . أما الضريبة على الدخل أو على الإيراد ، وهى التى يقع عبئها على الطبقة الغنية ذات الإيراد

الكبير فبعد أن فرضتها الحكومة إبان الحروب النابليونية عادت فألغتها فى عام ١٨١٦ مما جعل العمال يعتقدون بحق أن الحكومة لا تعمل إلا طبقا لمشيئة ومنفعة الطبقة الغنية وأصحاب الأملاك . . وتدهورت حالة العمال من سيء إلى أسوأ حتى اضطرت الحكومة إلى العودة إلى فرض ضرائب الدخل فى عام ١٨٤٢ وتخفيف العبء قليلا عن كاهل تلك الطبقة العاملة البائسة .

* * *

ولنضرب هنا مثلا من الأمثلة الكثيرة لكى نصور مدى ما كان يعانيه العمال من البؤس فى ذلك الوقت ، والمثل الذى نسوقه للقراء وصف لحالة العمال فى بلدة "روتشديل" كما ذكرها أشهر المؤرخين التعاونيين وهو "جورج جاكوب هوليوك" . . قال :

" كان النساجون على الأنوال اليدوية فى بلدة روتشديل أكثر العمال بؤسا وأشدهم تأثرا بالآلات الحديثة ، وفى هذا يقول " شانون كروفورد " فى خطاب له فى مجلس العموم فى ٢٠ سبتمبر من عام ١٨٤٠ : أن هناك ١٦٠ شخصا يعيش كل منهم على ٢٥ مليما (٦ بنس) فى الأسبوع ، و ٢٠٠ يعيش كل منهم على ٤٠ مليما (١٠ بنس) فى الأسبوع ، و ٥٠٨ يعيش كل منهم على ٥٠ مليما فى الأسبوع ، و ٨٥٥ يعيش كل منهم على ٧٥ مليما فى الأسبوع ، و ١٥٠٠ شخص يعيش كل منهم على ٩٠ مليما فى الأسبوع . وثبت أن نحو ٨٥٪ من هؤلاء الأشخاص لا يجدون غطاء فى مساكنهم يقيهم قارص البرد " .

وقد تعددت حوادث الاضراب من العمال فى ذلك العهد على غير جدوى ، إذ كانوا لشدة فقرهم لا يستطيعون أن يضربوا طويلا وكما أن هناك فائضا كبيرا من الأيدى العاملة التى لابد لها من أن تعيش بأى أجر يعرض عليها مهما كان ضئيلا ، فكل عامل "جائع" يضرب كان يسهل على صاحب العمل أن يجد بدله عاملا آخرا " أكثر جوعا " يقبل العمل بالأجر نفسه ليسد به بعض رمقه هو وأطفاله . فالبطون الجائعة — بطون الصغار الذين يطلبون لقمة الخبز باكين — لا تستطيع النفوس مقاومة تأثيرها مهما كان الحافز الى الاضراب قويا .

نكتفى بهذا القدر فى تصوير حالة العمل والعمال فى انجلترا ابان الانقلاب الصناعى .

ولقد كان من أهم أصحاب المصانع البارزين فى ذلك الوقت " روبرت أوين " فى بلدة من بلاد اسكتلاندا تسمى " نيولانارك " ويقولون عن مصنعه إنه كان أحسن مثال فى حسن الإدارة ، وكان لروبرت أوين ميول قوية نحو اسعاد العمال الذين يعملون فى مصنعه ولذلك كان يعاملهم معاملة يحسدهم عليها اخوانهم فى المصانع الأخرى غير أننا لو نظرنا فى هذه الأيام إلى المعاملة التى كانت تعتبر حسنة فى ذلك الوقت لوجدناها ظالمة مجحفة .

فمثلا كان يعمل فى مصنعه نحو ٢٠٠٠ عامل وكان من بينهم فى بادئ الأمر نحو ٥٠ طفل تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثامنة ، وكانوا يعملون من الساعة السادسة صباحا إلى الساعة السابعة مساء مع اعطائهم نصف ساعة للافطار وثلاثة أرباع الساعة للغداء ، أى أن مدة العمل اليومى كانت اثنتى عشرة ساعة إلا ربعا .

ومع هذا فقد أعد روبرت أوين للصغار من عمال مصنعه مدرسة مسائية تبدأ الدراسة فيها من الساعة السابعة مساء وتنتهى فى التاسعة ، إلا أن هذه المدرسة لم تكن ذات فائدة ملموسة لأن هؤلاء الصغار الذين أضناهم التعب ساعات طويلة اثناء النهار ، كان النعاس يغلب كثيرا منهم وهم جلوس يتلقون دروسهم .

لم يكن روبرت أوين راضيا عن تشغيل عماله هذه الساعات الطويلة من كل يوم ، أو تشغيل الأطفال الصغار فى أعمال شاقة تنوء بها كواهلهم ، غير أن شركاءه فى المصنع كانوا لاينظرون نظرته فلم يكن همهم ينصرف إلى شىء غير تضخيم أرباح المصنع واستغلال من فيه الى أقصى حد .

وقد وجه روبرت أوين عنايته فى بادئ الأمر إلى تعويد عماله على النظام والطاعة والادخار ، ثم جاهد فى سبيل الوصول إلى حل لمشكلة الأطفال فتوصل إلى الإستغناء عن تشغيل جميع الأطفال الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات ، وكان بين الاصلاحات التى قام بها أن أوجد صندوق ادخار للعمال أحسن ادارته كل الإحسان ، كما خصص أموالا لعلاج المرضى من العمال جميعا بدون مقابل ، ثم افتتح لهم أخيرا محلا لإمدادهم بالمأكولات والملبوسات واللبن والوقود من أحسن الأصناف وبسعر لايكاد يزيد على سعر التكاليف . وقد أشار روبرت أوين إلى هذا المحل فيما بعد فقال إنه وفر به على العمال ٣٥ ٪ من الأثمان التى كانوا يدفعونها ، واتبع أوين جهوده هذه بافتتاح مدرسة نهارية خصصها لأبناء العمال مع ابقاء المدرسة الليلية للعمال كبارهم وصغارهم .

ويحسن أن نأتى هنا على ما قاله روبرت أوين نفسه فى وصف مصنعه عام ١٨٢٨ :

"لقد قضينا ٢٩ عاما دون أن نضطر إلى الالتجاء إلى القضاء أو أن يلحق بأحد عمالنا أية عقوبة قانونية ، كما أن عمالنا لم يتفش بينهم ادمان الخمور ، ولم تنشب بينهم عداوات دينية ، ولقد خفضنا ساعات العمل وأحسنا تعليم الأطفال منذ حداثتهم ، وادخلنا تحسينا كبيرا على مساكن العمال المكتظة بهم ، ودفعنا فائدة رأس مال المصنع ، وفى النهاية خرجنا بأرباح تربى على ٣٠٠,٠٠٠ جنيه " .

عبد اللطيف عامر